من فتاوى الكفر بها إلى توأمتها بالعنف والفوضى والتخريب:

منهجية العداء المطلق لمسيرة الديمقراطية اليمنية

في البدء كانت فتاوى الكفر بالديمقراطية وتكفير دعاتها لحظة ميلادها توأماً للوحدة، ولا يبدو أن الخاتمة تقف عند فعاليات نسف الديمقراطية من الداخل وتشويهها بأعمال تخريبية فوضوية إرهابية شهدتها بعض المدن اليمنية تحت ستار الديمقراطية وشعاراتها.. وبين الحرب على الديمقراطية عن بعد بالفتاوى وتوأمتها بالفوضى والعنف في الساحات والشوارع سلسلة متصلة من الأعمال الإجرامية التي استهدفت الديمقراطية أكثر من أي شيء آخر مع وعقب كل خطوة مهمة وتجربة متطورة تضاف إلى رصيد وإنجازات المسيرة الديمقراطية اليمنية الرائدة.

فعقب الاستفتاء على دستور الجمهورية اليمنية في 1991م برزت إلى الساحة جرائم الاغتيالات الإرهابية.. وأتت نتائج انتخابات أبريل 93م متبوعة بانقلاب على الديمقراطية تطور إلى أزمة ثم ارتداد عن الوحدة وإعلان الحرب والانفصال... وأعقبت انتخابات 97م حوادث إرهابية استهدفت السياح والأطباء الأجانب والدبلوماسيين.. وبين الانتخابات الرئاسية 99 والمحلية 2001م وعلى مقربة من المناسبتين تصاعدت حوادث اختطاف واستهداف الأجانب والسفارات والمصالح الأجنبية وخاصة منها التابعة لدول صديقة كان لها حضور في دعم التجربة الديمقراطية ومشاريع تطويرها ومسيرتها.. وليس ببعيد عن هذا الترابط والتزامن تفجير المدمرة الأمريكية "كول" والناقلة الفرنسية "ليمبرج" وحتى اغتيال جار الله عمر جهارا نهارا في فعالية سياسية ديمقراطية مشهودة، وبفعل فاعل معلوم التوجه والانتماء والموقف من الديمقراطية..!!

أحمد غيلان

Ag_yemen@yahoo.com

الفصل الأول من أعمال التمرد والتخريب في صعدة جاء عقب الانتخابات البرلمانية 2003م بينما مشهدها الأخير والأعنف حمل الرد الغاضب على نتائج الانتخابات الرئاسية والمحلية 2006م والتي مازالت آثار ردة الفعل إزاءها تتصاعد وتتنوع من ساحة الديمقراطية بصنعاء إلى قطع الطرقات في الضالع وأعمال العنف والتخريب في عدن ولحج والمكلا وغيرها.. ومع كل جديد في الشأن الديمقراطي يتضح جديد العداء المطلق لهذا الإنجاز الحضاري اليمني الذي اختاره الشعب منهج حياة وأداة بناء ووسيلة لفرض الإرادة الجماعية على رغبات ونوازع التسلط الفردية والشللية والفئوية.

ولسنا بحاجة إلى التذكير بالهزيمة التي ألحقها الشعب بأحزاب اللقاء المشترك ومرشحيها وبرنامجها السياسي "الانقلابي" عبر صناديق الاقتراع في الانتخابات الرئاسية والمحلية التنافسية التي شهدها الوطن وشهد بنزاهتها وتميزها وشفافية إجراءاتها العالم بأسره في الـ20 من سبتمبر 2006م.

وعلى الرغم من أن أحزاب المشترك "مجتمعة ومنفردة" مارست على السلطة والحزب الحاكم ولجنة الانتخابات وعلى الرئيس وعلى الشعب وحتى على المنظمات الخارجية كل ما استطاعت ممارسته من أساليب المزايدة والابتزاز - ليس خلال الحملة الانتخابية والإرهاصات التي سبقتها وحسب - بل وقبل ذلك بفترة كبيرة... حيث بدأت تحرض وتستثير الشارع وتستفز السلطات وتزايد على معاناة الناس وتشوه صورة النهج الديمقراطي وتشكك في السجل الانتخابي الذي شاركت في إعداده وتكوينه من خلال ممثليها في لجان القيد والتسجيل واللجان الانتخابية بجميع المراكز والدوائر الانتخابية وفي عموم المديريات والمحافظات وعلى مستوى كافة قطاعات اللجنة العليا للانتخابات وفي جميع مراحل القيد والتسجيل وتحرير وتصحيح جداول الناخبين بدءً من انتخابات 93م وانتهاءً بانتخابات 2006م.

وليس جديداً القول بأن الذين حاولوا الانقلاب على الديمقراطية والوحدة بافتعال الأزمة ثم بإعلان الانفصال عام 94م لم يفعلوا ذلك إلا من هول الصدمة التي أعمت بصائرهم عقب الهزيمة التي تلقوها عبر صناديق الاقتراع في 27 أبريل 1993م في الانتخابات البرلمانية التي جرت بشفافية مطلقة وعبر خلالها الشعب عن إرادته الحرة ومنح ثقته وأصواته ومعها أغلبية أول برلمان منتخب في الجمهورية اليمنية لمن استحقها ليفاجأ الشعب بعد تلك الانتخابات مباشرةً بمن كانوا يتغنون بالديمقراطية ويزايدون عليها وهم يعلنون كفرا بواحا بها وحربا مدمرة ضدها وضد الوطن والوحدة والمكتسبات الثورية.

وليس من الأسرار التذكير بمواقف "الإخوان المسلمين" التيَّار الذي كان نواة تجمع الإصلاح، والذي عمل ضد الوحدة طوال مراحل العمل السياسي الذي سبق وحدة الوطن... وبمبرر أن "التوحد مع الشيوعيين كفر" صوت التيار المتطرف في مجلس شورى الجمهورية العربية اليمنية ضد الوحدة صبيحة 22 مايو90م وعمل التجمع اليمني للإصلاح على تعبئة الجماهير للتصويت "ضد دستور الجمهورية اليمنية" الذي وصفوه بالعلمانية والانحراف عن الشريعة وغيرها من الأوصاف خلال حملة التوعية للاستفتاء على دستور دولة الوحدة بعد قيامها بأشهر الذي كان استفتاء ضمنيا على الوحدة ذاتها...

وليس من قبيل الجهر بالسوء التذكير بتلك الفتاوى التي أصدرها كبار متخصصي "فتاوى التحليل والتحريم" الذين كشفوا عن توجهاتهم الانتهازية بعد أن شعروا بتورطهم في تعبئة أنصارهم وتابعيهم ضد الديمقراطية فعادوا لإصدار الفتاوى الاستثنائية التي مفادها أن الضرورات تقتضي خوض غمار المنافسة الانتخابية والدفع بالرجال والنساء والأطفال إلى مراكز القيد والتسجيل والاقتراع.. لتحقيق أهداف وغايات مؤقتة.. وبعد أن كانت الديمقراطية كفرا أو الانتخابات زندقة وصوت المرأة عورة وخروجها إلى العمل السياسي فسادا وكفرا مبينا تحول العمل السياسي والانتخابي بفعل فتاوى "فقه الضرورات" إلى جهاد في سبيل الله ومرابطة في الثغور.. "لدرء المفسدة الكبرى بمفسدة صغرى" وعلى أساس "فقه الضرورات" شهد برلمان 93م في أولى دورات انعقاده الصفقة الانتهازية الشهيرة التي تم على أساسها "الإبقاء على المعاهد العلمية مقابل الإبقاء على مصنع صيره"..

وليست أعمال التأجيج والتحريض على الفوضى والشغب وأعمال العنف واستهداف الوحدة بمشاريع كيد ضيقة أول محطة تجمع وصولية اليمين وانتهازية اليسار وأبواق مشعلي الحرائق وسماسرة الارتهان الذين خرجوا من الجحور والمقابر والمزابل.. فلا زالت آثار أعمال العنف والتمرد والتخريب والفتنة التي شهدتها بعض مديريات صعدة باقية وحية تذكرنا بها مفردات خطاب الزيف والتحريض ومواقف سقوط في مستنقع المؤامرة التي استهدفت الوطن والوحدة والثورة والديمقراطية والمنجزات ودماء الأبرياء من مواطني صعدة وإخوانهم من أبطال الجيش والأمن.

الذين هزمهم الشعب عبر صناديق الاقتراع يتخندقون اليوم ضد الوطن مع الإرهابيين والانقلابيين والمتمردين والمرتهنين

وهي الفتنة التي بلغت ذروتها مرتين: إحداهما عقب الانتخابات البرلمانية 2003م .. والثانية عقب الانتخابات الرئاسية والمحلية 2006م.. وهما المناسبتان الديمقراطيتان اللتان خرجت منها وعلى أساس نتائجها تلك القوى المفلسة مثقلة بهزائم ديمقراطية مستحقة لم تتعظ منها بقدر ما اعتبرتها مبررا لمضاعفة حقدها على النهج الديمقراطي والمكتسبات والمنجزات الوطنية..

ولسنا هنا بصدد نبش القبور للبحث عن أدلة الإدانة لقوى وتيارات وشخصيات ما انفكت تلقي أوراق وقصاصات ومفردات تورطها في استهداف الوطن ووحدته وثوابته واستقراره وديمقراطيته.. ولكننا نقف عند محطات مهمة وأحداث بارزة وشواهد ماثلة للبصر والسمع نتذكرها ونذكر بها ومن خلالها بأياد ملوثة وقوى تأبطت الشر والحقد وامتهنت التآمر والتخريب والعبث.. وتحالفت مع مشاريع استهداف اليمن وثورته والانقلابات، وهي أداة بناء ووسيلة تعايش آمن وتداول سلمي للسلطة، وهي كذلك صمام أمان الحاضر والمستقبل، وهي سلاح الشعب لمجابهة الظلم والتسلط ومقارعة الزيف والتآمر وممارسة حقوقه والتعبير عن توجهاته وفرض إرادته الجماعية على الإرادات والأمزجة والأهواء الفردية والفئوية الطائشة، وهي وسيلته السلمية لردع المتطفلين والانتهازيين والمتسلقين والمتاجرين بقضاياه وهمومه وأحلامه وتطلعاته.. لأن الديمقراطية تعني كل هذه المفاهيم والقيم، فقد كانت وما زالت الديمقراطية هدفا أول وصدرا أول يتلقى طعنات الخناجر المسمومة والسهام الغادرة من قوى الطيش والعبث والحقد والتآمر والارتهان والتسلط والتطرف والإرهاب..

هذه القوى التي ارتدت قميص الديمقراطية لممارسة الشمولية والإقصاء والتسلط، وكل سلوك يجسد الأنانية والعجب والصنمية والنرجسية..

ورفعت زوراً شعارات الحرية وحق الرأي والتعبير، وتبنت فعاليات تحريضية وتخريبية من خلال تظاهرات ومسيرات واعتصامات وسلوكيات هي في الأساس وسائل تعبير ونضال سلمي مشروع وتنتمي إلى حزمة مظاهر الحياة الديمقراطية إذا لم تكن ملغمة بأعمال العنف ومفخخة بالتعبئة التحريضية العدائية التخريبية التي تنسف مشروعيتها وأحقية القائمين عليها في ممارستها قبل أن تحقق أهدافهم في نسف السكينة والاستقرار والقفز على الثوابت واقتراف جرائم التفكيك والتفتيت والتخريب والعبث وتشويه الصورة الحقيقية للديمقراطية التي لا تعني الفوضى..

علي عبدالله صالح يترك الأفعال وحدها تكشف زيف وبهتان ومزايدات تجار الأزمات ودعاة التمزيق والتخريب والفوضى

لا جديد في طابور العداء والحقد على الديمقراطية سوى أولئك الذين تكشف الممارسة الديمقراطية بين تجربة وأخرى صنميتهم وشموليتهم وزيفهم وقصر قاماتهم وضيق آفاقهم وصغر أحجامهم.. فتلحقهم بحفنة المهزومين الذين تقزمهم إرادة الشعب وأصوات الجماهير... فتتبخر شعاراتهم وتتساقط أقنعتهم لتظهر وجوههم الكالحة وأبواقهم الحاقدة وضمائرهم المعطوبة متلبسين جرم النكوص والارتهان لمصالح ضيقة ومشاريع ارتزاق وابتزاز لا يتبناها ولا يلتحق بها إلا من هانت عليه نفسه قبل أن تهون عنده قيم الحرية والمواطنة والانتماء الأصيل لوطنه وشعبه الأبرياء وأصحاب المحلات التجارية والباعة المتجولون ورجال الأمن في شوارع صنعاء وعدن ولحج والمكلا والضالع.. كما أننا لم ولن ننسى أعمال وخطابات التحريض التي كشفت - وعلى ألسنة قيادات أحزاب المشترك وشركائهم اللامحدودين- حقيقة النوايا التي يضمرونها للشعب والوطن والوحدة والديمقراطية.. ويكفي أن نتذكر - على سبيل المثال لا الحصر- قحطان المشترك وهو يدعو ويتوعد وينادي بـ"تقويض النظام" وقبله حميد الإصلاح وهو يدعو إلى "ثورة شعبية" وقبلهما فتوى متوكل القوى الرجعية بـ"مشروعية وضرورة الاستقواء بالخارج".. وبالأمس القريب انبرى ياسين عبدالرزاق "المحامي والقيادي الناصري" يقول إن الحل الوحيد للخروج من الأزمة هو "حل المؤتمر الشعبي العام" وخروجه من السلطة التي منحها إياه الشعب بإرادته الحرة.. وهاهو العتواني يطالب "باستقالة حكومة الحزب الحاكم".. وعبدالوهاب الآنسي يؤكد حاجة البلاد إلى "إنقاذ"... ومن بين شعارات "حقوق المتقاعدين" يصرخ المعطري بأعلى وأنكر صوت ليقول أن ما يمارسون من فوضى وتخريب "لا علاقة له بحقوق متقاعدين" وإنما يرتبط بـ"جيش دولة".. ويجيبه باعوم من المكلا بـ"نفي الاعتراف بالجمهورية اليمنية" والتحريض على التحرر مما أسماه احتلال "ج.ع.ي".. وفي خضم كل هذا الزيف والعبث تتداعى أبواق الفتنة والتآمر إلى ترك القتلة وعدم محاسبة ومحاكمة المعتدين والمخربين والساعين في الأرض فسادا وتآمرا وتخريبا من الحوثي إلى النوبة.. ومن الذرحاني إلى الخيواني.. ومن خلية صنعاء إلى خلايا باعوم والمعطري..وبقايا الملاحقين من ربائب حاضنات الإرهاب

وكما هو حاصل ويتكرر في كل محطة تآمر على الديمقراطية ونكوص عن قيمها ومسيرتها ينبعث من دهاليز الفتنة ومزابل التاريخ النباشون والنخاسون وتجار الأزمات والفتن وحفارو الأخاديد والخنادق... فيطالعنا الأصنج "مروجاً لمؤامرات ومتآمري الداخل والخارج".. ويقفز الحكيمي "سمسارا في سوق مواشي" والبيضاني دجالاً يتأبط الثورة والنضال والريادة على طريقة ملكات الرقص الشرقي اللواتي لا يروق لإحداهن أن تطل على رواد حانتها إلا بالجملة الافتتاحية الشهيرة "سماع هص".. ومن وراء وأمام وحوالين هؤلاء تتعالى أصوات وفقاعات النطائح والمترديات والموقوذات وما خلفت الهوام كل بحد سكينة غدر.. فتنبعث الروائح وتتجلى الحقائق وتتساقط الأقنعة ويكشف كل مغرد وناعق عن هواه ونوازعه..

وبين كل هذا الركام من الزيف والشتائم والقبح والتعري والسفور والمجاهرة الوقحة بكل ماهو سوء تتجلى حقيقة صلابة وقوة ورسوخ النهج الديمقراطي ذي الفضاءات الرحبة على مختلف المستويات.. وتتجلى عظمة وحكمة وحلم القائد الوحدوي الديمقراطي الفذ المتسامح علي عبدالله صالح وهو ينتقي ويتتبع من بين شعارات ودعاوى ومزايدات الفوضويين ماله صلة بحقوق الناس ومطالبهم ومعاناتهم ويسارع إلى التعاطي معها بإيجابية وروح وطنية ديمقراطية وإحساس عال بالمسئولية، ويتجاهل النباح والزيف والشتائم والتطاولات... ويترك للأفعال وحدها كشف الباطل من أقوال الزور والبهتان.. بل ويزيد على ذلك تأكيد وتجسيد مقولته المتكررة "سنعالج أخطاء وسلبيات الديمقراطية بمزيد من الديمقراطية".

ومن بين ثنايا حلقات التآمر والفوضى والحقد والعبث المتصلة ببعضها أداة وسلوكا ومواقيت، يتأكد لأي متابع عادي - قبل المتابع السياسي- أن النهج الديمقراطي كان ولا يزال هدفا مشتركا تصوب نحوه سهام التآمر... باعتباره ثمرة نضال وحصيلة عطاء وعلامة نهوض واستقرار وتنمية، ومعلما بارزا من معالم رسوخ وتحقيق أهداف الثورة المباركة، ودليلا ناصعا على صوابية المسيرة الوحدوية التي كانت الديمقراطية ولا زالت وستظل تتصدر خيراتها وثمارها..

ومثلما تلتقي وتتداخل فصول المؤامرات والدسائس، يلتقي في محطاتها أعداء الثورة والنضال بالناكصين عن الوحدة والأعداء الخلّص للديمقراطية، ورويدا رويدا اتسعت الحلقة بعد أن التحقت بها تيارات الإرهاب والتطرف وانظم إليها بقايا المرتهنين وفلول الشموليين وذوي العاهات المزمنة، وإن اختلفت غاياتهم ومشاريعهم ورؤاهم إلا أن أفعالهم وجرائمهم "مجتمعين ومنفردين" تصب جميعها في خانة العداء المطلق والحرب الشعواء المعلنة للديمقراطية، التي كشفت الممارسة الحقيقية لمفرداتها على مدار 17 عاماً حقيقة وحجم تلك القوى والتيارات والشلل.. التي ما انفكت تحسب نفسها على الشعب قوى ذات حضور وأحقية في الوصاية والتسلط والاستغلال البشع لجهود ونضالات الشعب وخيرات الوطن..

وعلى هامش من كل هذه الضوضاء وكل ذلك الضجيج وكل هذا العبث وكل هذه المزايدات وكل هذا التتابع لفصول الإجرام والفوضى والمكر، يزداد وعي الشعب وإدراكه لحقيقة من يعمل لتحقيق أحلامه وتطلعاته ومن يقف في صف أعدائه ومستهدفي وجوده ورفاهيته ومصالحه ، ويتضح للجماهير اليمنية من يشاركها البناء والكد والعرق ، ومن يحمل في وجهها معاول الهدم والدمار ويزرع الشوك والألغام ويشعل الحرائق في طريقها الممتد نحو الرفاهية والازدهار .

محاولة الخلط بين الحرية والفوضى لا تقل خطرا عن الفتاوى التي اعتبرت الديمقراطية انحرافا عن الدين

التعصب الديني وصناعة الكراهية

محمود كرم □

أليس مستهجناً وقبيحاً وسخيفاً أن هناكَ مَن يستطيع أن يملكَ الشجاعة الهائلة لكي يخرج على الناس صارخاً ومنتقداً ومهاجماً ولاعناً وشاتماً ومشترطاً وموجهاً وموبخاً ونابذاً ، وفوق ذلك يأتي ناصحاً ومرشداً وهادياً ومصلحاً ومنقذاً ، ولكنه في الوقت نفسه يعجز عن أن يملك ذرة من الشجاعة لكي يسمع أو يتحمل أو يتقبل الرأي الآخر أو الصوت المختلف .!؟

هكذا هم المتعصبون لدينهم ومذهبهم وطائفيتهم وأيديولوجيتهم ، وهكذا هم الغارقون في تعصبهم الديني والمذهبي والطائفي والأيديولوجي حد الجهالة والعُمي ، فهم لا يستطيعون أن يروا في هذا العالم سوى أنفسهم ودينهم وتاريخهم ومذهبيتهم ، ويأتون إلى الناس صارخين عليهم بكل البغض والعداء والكراهية والإقصاء والنبذ ، فهؤلاء نموذجهم في الحياة واقعٌ من خلاصة التعصب والتحزب والطائفية يتمثل في البغض والعداء والنبذ والكراهية ، وكل هذه القباحات هي نموذجهم الأمثل ، لأنها تتمثل فيهم وتنطلق منهم ، ولأنها يستحيل ألا تكون موجودة في طريقتهم وتفسيراتهم وأسلوبهم وتفكيرهم ومسلكياتهم ، ولأنهم في مقابل ذلك يجيدون اقتراف كل تلك الشرور والقباحات والبذاءات وربما لا يجيدون سواها ، ولأنهم يعانون منها في ذواتهم ، يعانون من عقدها وضغوطاتها وافرازاتها فلابد أن يواجهونها بالتأكيد عليها وبالتمسك بها وبالتشبع منها ، ولذلك فأن التعصب والطائفية والتمذهب موجود منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، ولأنه أصبح وجوداً فأنه يصبح تبعاً لذلك نموذجاً ، نموذجاً يتماثل ويتماهى مع وجودها ووجودهم ، نموذجاً أوحد ومكتملاً وكاملاً يُبقيهم موجوداً حاضراً وشاخصاً وناطقاً ومتفجراً على قيد الكراهية والعداء ، يستحضرونه دائماً ويتباهون به ويطبقونه ويتداخلون معه بذواتهم ، فهل يمنحهم أو يعلمهم التعصب والتمذهب الطائفي الديني سوى أن يتعلموا ويلتزموا بالبغض والكراهية والحقد والعداء لغيرهم المختلف عنهم ديناً أو مذهباً أو عرقاً أو لغة ، أو المختلف عنهم معتقداً أو فكراً أو منهجاً ، وهل تعلمهم وتمنحهم الطائفية والتعصب المذهبي والديني أن يمتلكوا الشجاعة لكي يكونوا في مستوى التسامح مع الآخر المختلف وفي مستوى التهذيب والأخلاق الإنسانية ..

إن مَن يفتقد الأخلاق ، أخلاق الذات المتسامحة ، أخلاق الشجاعة العالية في أن يكون متسامحا ، سيفقد إنسانيته ، سينحاز للتعصب والجهالة والطائفية والعنف الديني ، وسينحاز لتاريخه النموذج ولأطره النابذة ولمرجعياته الحاقدة ولتعصباته المذهبية والدينية ، فماذا منحتهم تعاليمهم الطائفية والدينية والتحزبية غير أن يكونوا أعداءً لهذا أو لذاك ، يبغضون ويحتقرون ويكرهون وينبذون ويتعالون ويتكبرون ويحاربون ويقاتلون ، وهل تشترط عليهم تعاليمهم وأدبياتهم غير أن يكونوا حاقدين ومبغضين وكارهين ونابذين ومتعالين ، وهل تلزمهم تعاليمهم الطائفية والهوياتية الدينية بغير أن يلتزموا تماما بأحقادهم وكراهياتهم وعداواتهم وتاريخهم ونموذجهم ..

فأي هلاك وتدمير وخراب وضياع ينتظر الإنسان حينما تفرض عليه تعاليمه الطائفية والتحزبية والدينية أن يكون مبغضا وكارها وحاقدا وشاتما ولاعنا ومهددا ومتوعدا ومستفرغا بالوقاحات والبذاءات ، فمن الذي أعطاه كل تلك المزايا ، ومَن منحه كل تلك القباحة والدمامة ، ومَن أوجدَ فيه كل تلك الأخلاق البذيئة ، ومَن ألزمه بها واشترط عليه التحلي بها ومَن هددهُ وأخافهُ من عدم التمسك بها ، أليس هو ذلك التعصب الديني القابع في أعماقه بكل تفاسيره ونصوصه الطائفية وحمولاته التراثية ومنقولاته التاريخية وبكل منابره الوعظية والخطابية وطقوسه الدينية الممسرحة ..

إن شتم الآخرين والانتقاص منهم والتشنيع عليهم واحتقارهم ولعنهم واستبشاعهم لهو الغذاء المفضل لدى المتعصبين والطائفيين والمؤدلجين دينياً وفكرياً ، فهو الذي يُطعم مشاعرهم وأخلاقهم ونفسياتهم بالكراهية والحقد والبغض والعداوات ، وهو الغذاء الذي يتحول في ذواتهم إلى مشاعرَ بغيضة وأخلاق قبيحة ونفسيات كارهة وحاقدة ، فهل تصورتم كيف سيكون عليه حال هؤلاء لو لم يجدوا أحداً يشتمونه أو يلعنونه أو يحتقرونه أو يتهمونه بالمؤامرة والتخريب والفساد ، لو لم يجدوا أحداً بالتأكيد سيلعنون (الشيطان) كعادتهم دوماً لأنه الوحيد الذي يستطيع بكرمه الباذخ أن يملأ فراغ حياتهم بلعناتهم وشتائمهم وسبابهم له ..

ومَن يستطيع أن يكون عاشقاً للجمال وصانعاً له وداعياً إليه ومحلقاً في ملكوته ، ومَن يستطيع أن يكون عاشقاً للتسامح والحب والأخلاق النظيفة ، هو ذلك الإنسان الذي استطاع أن ينتصر لإنسانيته التي تطهرت من أوساخ التعصبات الدينية ومن لوثة المذهبيات الطائفية ، وهو ذلك الإنسان الذي استطاع أن يخرج متعافيا من تخندقاته الماضوية ومن أحقاده التاريخية ومن موروثاته التراثية الاحترابية ، ومَن لا يستطيع أن يخرج من تعصباته الدينية ومن جهالاته الطائفية ومن اكراهاته المذهبية الفكرية والعقائدية ، فهو إنسان لم يستطع أو يتصور أو يتخيّل أن يجد نفسه في يوم ما خارج تلك الأطر والمرجعيات والمنظومات ، لأنه من غيرها سيجد نفسه واقعاً في الفراغ والتيه وفي الإلهادف ، لأنها صاغته وشكلته تلقينيا وبيئيا ونفسيا وشعوريا وثقافيا على أن يبقى وفيا لها ولتعاليمها ، ومخلصاً لأهدافها وبرمجياتها ونصوصها ومشاريعها وأوصيائها وقادتها ، وهي غذاؤه الفاسد الذي يقتات منه وجوده الطائفي والتحزبي والديني ..

ومن السهل جداً ومن دون أي جهد منكَ أو عناء أو تفكير أن تؤمنَ بتعاليمك التراثية وبنصوصك وببرمجيات المذهبية والطائفية والتعصبية والتحزبية ، لأن الإيمان بها لا يحتاج منك سوى الرغبة بالإيمان بها من دون أن تأتي بدليل عقلي أو إثبات منطقي ، بينما أن تكون في مستوى الشجاعة والنبل والتسامح والمحبة والأخلاق والنظافة الذاتية ، وأن تكون في مستوى الفكر الإنساني الحر الرافض لكل تلك الأطر والمرجعيات والثوابت ، فكل ذلك يحتاج منك جهداً كبيراً وعناءً مضاعفاً وتعباً ذاتياً فكرياً وتفكيرياً ونفسياً ، وحتى حينما تذهب لكي تؤدي طقوسك العظيمة لا يحتاج الأمر منك إلا بعضاً من الجهد الجسدي والعضلي ، بينما أن ترتفع إلى مستويات الأمانة والصدق والتسامح والحب والأخلاق الإنسانية الشجاعة ، فالأمر في هذه الحالة يحتاج منك جهداً أخلاقياً ونفسياً وإنسانياً كبيراً لكي ترقى إلى هذه المستويات ..

وأولئك الذين يخرجون دوماً على الناس شاتمين وكارهين ومبغضين وحاقدين ولاعنين ، إنهم في حقيقة الأمر يستنفرون كل أساليبهم الدفاعية والاستحكامية للدفاع والذود عن تعاليمهم ونصوصهم ومنقولاتهم وحمولاتهم الثقافية والأيديولوجية ، لأنهم يؤمنون في أعماقهم وفي مشاعرهم أن (الآخر) الذي يشتمونه ويلعنونه ويترصدونه بالكراهية والبغض متفوق عليهم ، ويتفوق عليهم دائما في كل شيء ربما ، ولذلك يعتبرونه خطراً داهما عليهم وعلى تعاليمهم وأدبياتهم ووجودهم ، يجدونه خطراً يهدد دينهم وتاريخهم وتراثهم وانجازاتهم وقيمهم ، وربما أيضاً حينما يكرهون ويقاتلون ويبغضون (الآخر) ليس لأنه يختلف عنهم ، بل لأنه يحرز دائما تفوقا عظيما عليهم ، ولذلك تتحول كل عمليات الشتم واللعن والكراهية والبغض لديهم إلى أساليب وقنوات دفاعية استحكامية وهجومية أيضا ، فحينما يعجزون أن يكونوا في مستوى التفوق والانتصار والحضارة والإنسانية تصبح الشتائم واللعنات والكراهيات هويتهم وأداتهم في معركة التنافس ، وتعكس في النهاية مسلكهم وشعورهم ونفسيتهم وفكرهم وثقافتهم وأخلاقهم ..

وأولئك الذين يعتلون منابر الدفاع عن دينهم وتعاليمهم ومذاهبهم وطائفيتهم وتاريخهم بكل أسلحتهم الخطابية الفتاكة المحرضة على الكراهية والبغض والنبذ ، وبكل صراخهم النابذ للآخر والمهمّش له والمتعالي عليه ، إنهم في حقيقة الأمر يستحضرون مخزون ثقافتهم التلقينية والشفهية ، ويلقون بها في هذا الطريق ، إنهم يستفرغونها تعصبا وجهالة وحقدا وكراهية ، إنهم ملتزمون تجاه تعاليمهم بما ألزمتهم من فروض وبرمجيات تلقينية وشفهية من دون أن يفكروا فيها ومن دون أن يملكوا حقّ اختيارها أو رفضها ، بل وجدوها فيهم وكبروا معها تلقينيا وشفهيا وبرمجة وانصياعا ، وكلما كانت ثقافة التلقين هائلة وصارمة ومتجذرة فيهم ، كانوا أكثر شراسة في الدفاع عن تعاليمهم وتعصباتهم المذهبية والدينية والأيديولوجية ، فكل ذلك التلقين والبرمجة يتحول فيهم إلى عقائدَ ومعتقدات ومذاهب ومسلكيات يساوي في زخمه وشراسته وسطوته واستمراريته ، مقدار ما فيه من قوة وزخم مستمر في التلقين الديني وفي ثقافة الشفاهة الخطابية وفي عمليات البرمجة العقائدية ..

ولطالما أجدني في هذا السياق أتساءل : كيف لا يستشعر المتعصبون والطائفيون والمؤدلجون دينيا ومذهبيا فداحة ما هم فيه من تعصب وجهالة ونبذ واقصاء للآخرين ، ولكل مَن لا يوافقهم أو لا يستحسن عالمهم أو لا يستعذب روعة تعاليمهم ، وكيف لا يستقبحون مسلكهم هذا وأخلاقهم هذه ، ولا يرون في ثقافتهم وأفعالهم القباحة والبذاءة ، إنهم يبقون ويستمرون هكذا ، لأنهم يخافون من مجرد التفكير في التخلي عن تعصبهم وطائفيتهم وأيديولوجيتهم المذهبية والدينية ، لأن الخروج على كل ذلك يفقدهم نموذجهم وتاريخهم ووجودهم وماضيهم وحاضرهم وغذاؤهم ، ولأنه يفقدهم سلاحهم وصراخهم واستعراضاتهم الخطابية والهتافية والشعاراتية ، ولأن الخروج على كل ذلك يجعلهم في مواجهة حقيقتهم الخاوية والفارغة والهشة ..

□ كاتب كويتي